أعماق الثقافة دون أن يغرقه ثراؤها وصخبها ، بل وهى التى مكنته من استخلاص الحكم الذاتى دون أن يكلف نفسه عناء التحليل والإثبات . خذ مثلاً موقفه من الفن بعد جولات طويلةمن المشاهدة والملاحظة والتكامل بين الفنون الإغريقية والمصرية القديمة والأوروبية منذ عصر النهضة إلى العصر الحديث تراه يقول عن الفن المصرى القديم « إن أسلوبه قد أوحى إلىّ أسلوب الفن الحديث فى العصر الحاضر إلى حد كبير »(١٢) ولذلك لم يكن غريبا أن تنتهى سياحته المعرفية فى الثقافة الغربية وقراءاته الخاصة فى الأدب المسرحى إلى أن يبدأ بكتابة « أهل الكهف » ؛ الوعاء منقول من الغرب والمادة أصيلة .

هذه الحاسة النقدية المميزة مكنته من نقد ما عرض عليه من ثقافتنا العربية لا الثقافة ذاتها ، فقد أنصف الحكيم الثقافة العربية وانتصف لها من مؤلفى الكتب المدرسية حين تمكن من قراءة فكرها وأدبها وعلمها . « إنى لأدهش كيف أن مؤلفين مثل « ابن خلدون » و « الطبرى » و « ابن رشد » و « الغزالى » لم يعرضوا علينا قط فى دراستنا للأدب العربى بالمدارس ؟ ! . . . كيف نعرف لغة بدون أن نطالع فلاسفتها ومؤرخيها !! . . . أنستطيع معرفة الفكر اللاتينى دون أن نقرأ « سنيكا » و « مارك أرويل » و « تيتوس ليفيوس » و « كورنليوس تاسيت » ؟ ! . .